الوضع الاجتماعي والثقافي ليهود توات ودور المغيلي في تصحيحه

الدكتور المصري مبروك*
أستاذ محاضر جامعة أدرار

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد و على ءآله وصحبه وسلم. وبعد:

إن العلاقات الاجتماعية والثقافية التي عرفتها منطقة توات خلال القرن الخامس عشر الميلادي ،اتسمت بكثير من التعقد والنشاط الثقافي والعلمي والتجاري، مما جعلها ملاذاً آمنا لليهود الذين أطهدوا وطردوا من الأندلس من طرف المسحيين، فجاءوا وساكنوا أهل المنطقة خاصة تمنطيط، فكان لهم ما كان من الفعل المعهود بهم، من الخيانة واستغلال الفرص، فعاملهم الشيخ المغيلي بنفس المنطق فكان منه معهم ما كتب في هذه الصفحات التي تبين :

01- التعريف بالشيخ المغيلي
02- وضع اليهود في المنطقة
03- غيرة المغيلي على الاسلام
04- المغيلي يتشاور مع العلماء
05- تمكن اليهود ومحاربتهم للمغيلي

التعريف بالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي

هو الشيخ العالم العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي يكنى بأبي عبد الله عاش في القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ولد 790 هـ -1388 – توفي 909 هـ -1503 .

جاب الصحراء ونشر الإسلام في غرب افريقيا فقد كان رحمه الله مصلحاً معلماً مجاهداً

<u>قيمته العلمية :</u>

قال صاحب نيل الابتهاج فيه ((محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلـــي التلمساني خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة القدوة الصالح السني ، احد

*مداخلة ضمن فعاليات الملتقىالوطني حول:العلاقات الحضارية بين اقليم توات وحوضرالمغرب الاسلامي،جامعة ادرار

الأذكياء ممن لهم بسطة في الفهم والتقدم ، متمكن المحية في السنة وبعض أداء الدين .....))[1]

إذا كان عالما يصف عالما بهذا الوصف الشمولي من التمكن في العلم ومحبه السنة ونبذ البدع ، وإصلاح المسلمين والدفاع عليهم لهو وصف له اعتبار وينمي على حقيقته ومكانته العلمية المرموقة .

وقال فيه د . احمد بن احمد شر شال

((.... والداعية الكبير محمد بن عبد الكريم المغيلي .... الذي كان علما على السنة والذب عنها ، وكان صلبا شجاعا في نصر الدين ، ومحاربة البدع والخرافات ، وكان لا يخاف في الله لومة لائم ، وكان لايجابي ولا يجاري احد في دين الله ، ولم أجد في كتب الرجال والتراجم فيما قرأت : من فعل فعله في نصر الدين وشهد له بذلك جميع من ترجم له كالتمبكتي في نيل الابتهاج والحفاوي في تعريف الخلق وغيرهما، بل نعتوه بوصف لم يوصف به احد فقالوا : يتسم بالذكورة العلمية))[2]

وضع اليهود في المنطقة:

رأينا أن نذكر بهذه الحقائق من خلال رجل أنجبته رحم الإسلام عايش اليهود وعان منهم، فكان له معهم الموقف المذكَّر، ولنذكر أيضاً أن هذه الرحم لا تنضب أبداً ومن هذه الرحم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي.

لقد رأى الصنيع المعهود من اليهود، في توات[3]، وأنهم إذا استمكنوا نقضوا العهود والمواثيق وصدق الله العظيم ((أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم...))[4] .

فبعد ما طرد اليهود من الأندلس ومن صقلية نزلوا بجهة توات وبنوا كنيساً إعلاناً عن قوتهم التي تملكوها في المنطقة[5] .

بل لم يبنوا كنيساً واحداً وإنما بنوا بيعا ولم يقفوا عند هذا الحد بل ذهبوا بعيداً بالاستيلاء على التجارة ثم على الأهالي بالتحكم فيهم ، ومعاملتهم بأخبث الطرق والوسائل.

---

[1]- نيل الابتهاج بتطريز الديباج احمد بابا التمبكتي كلية الدعوة الإسلامية – طرابلس – ص 576

[2] - مجلة المرابطون – العدد الثالث السنة الثالثة 1415 -1416 هـ الموافق لـت1995 ص 42

[3] واحة من وحات الصحراء الجزائرية تقع بالجنوب الغربي تبعد عن العاصمة بحوالي 1500 كلم، تشتمل على ثلاث أقاليم (قورارة – توات الوسطى – تيدكلت ، تحتل موقعا أستراتجياً على أحد أهم الطرق التجارية الصحراوية بها حدود مع جمهورية مالي يحي بوعزيز : أعلام الفكر والثقافة في الجزائر ، دار الغرب الإسلامي بيروت ص 144-146.

[4] سورة البقرة الآية 100

[5] مجمع محاضرات المهرجان الثقافي الثالث للتعريف بتاريخ منطقة توات الدراسات الإسلامية والعربية وإفريقيا – ادرار 11/08/ جمادي الثاني 1408 هـ 27-30 جانفي 1988 ، مقدمة الرد على المغتزلة ، وداد الالورى ص 13 فما بعدها

فقد سُئل المغيلي ((ما تقولون في مسالة قبائل في آخر الصحراء حيث لا تنالهم أحكام الأمراء يتخذهم اليهود أخلاء ويلقبونهم بالخلائف فيأوونهم وينزلونهم في قصورهم ويجعلون الحوارير والسكة بأيديهم دون أمير يكون عليهم ، فيغشون المسلمين ويخونونهم ويحجرونهم شيئهم ويخدعونهم ومتى قام عليهم أحد من المسلمين كفته علائقهم عنهم وخاصمته دونهم حتى لا يتوصل إلى أخذ الحق منهم ...[1] فأجاب السائل في تسعة فصول وفي رسالته إلى كل مسلم ومسلمة .

افتتحه أيضا ب ((فقد سألني بعض الأخيار عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وعما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار وعما عليه أكثر يهود هذا الزمان من التعدي والطغيان والتمرد على الأحكام الشرعية بتولية أرباب الشوكة أو خدمة السلطان فاقول والله المستعان))[2].

ومن خلال هذين السؤالين يمكننا القول بأن اليهود الذين ساكنو المسلمين بتوات قاموا بأفعال تخالف الأحكام الشرعية.

استغلال الأهالي الذين أسكنوهم معهم في قصورهم لجهلهم فبدأوا يتحكمون في أرزاقهم وأحوالهم.

اتخذوا سكة غير سكة الأمير، بالاحتيال والنصب والنقص في الموازين، مستغلين تشتت الأهالي وبعدهم عن الأمير.

إخراج الأهالي عن طاعة الأمير، واحتكامهم إلى اليهود مما يكرس عملية الغش والاحتيال التي كانوا يمارسونها على الأهالي بحكم جهلهم.

محاولة إبعاد الأهالي عن المسلمين الوافدين الذين لديهم شيئاً من المعرفة حتى لا يتفطن الأهالي لمكر اليهود وغشهم وخداعهم لهم .

بل قد وصل الحد بالأهالي كما جاء في السؤال (... فإذا قيل لهم (للأهالي) إنكم أعنتم اليهود على التمرد ومنع الجزية وإذاية المسلمين، يقولون على هذا أدركنا ءآباءنا وعليه أدركت ءاباؤنا أباؤهم ..)،[3]فقد اقتنعوا باليهود وبتصرفاتهم حتى أنهم أصبحوا يخشون من كساد أسواقهم إن هم قهروا اليهود.

ومما يذكره يحي بوعزيز " أن يهودياً ظل أربعين سنة يصلي إماما بالناس وكان يرش المسجد والمصلين بالبول حتى تمكن المغيلي من كشفه ولحقه حيث هرب وقتله. [4]

وهكذا ظهر نفوذ اليهود وأصبحوا يتحكمون في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، بل وصل بهم الحد إلى التلاعب بعقائد المسلمين ودينهم، وأعلنوا ذلك صراحة ببناء بيعهم وانتشارها، الشيء الذي حرك في المغيلي غيرته الإسلامية وبدأ حملته في تخليص المسلمين من تحكم اليهود، وردهم إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وإلى جادة الصواب في الاحتكام إلى الأمير .

---

[1] اللوحة الأولى من المخطوط . ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار – الخزانة البكرية بتمنطيط.

[2] رسالة إلى كل مسلم ومسلمة اللوحة الأولى من المخطوط – الخزانة البكرية بتمنطيط .

[3] اللوحة الأولى من المخطوط مايجب علىالمسلمين من اجتناب الكفار...المرجع السابق

[4] يحي بوعزيز – أعلام الفكر والثقافة في الجزائر – دار الغرب الإسلامي – بيروت 150/2

فالمغيلي رحمه الله تعالي : لم يثر ضد اليهود لأنهم بنوا بيعاً جديدة فقط كما يقول ءآدم عبد الله الالوري " تتسلل اليهود إلى قرية من قرى المسلمين في (توات) واستطاعوا أن يبنوا فيها كنيسة، فغار المغيلي لذلك وجعل يحرض المسلمين بالناحية على هدم تلك الكنيسة وقتال أولئك اليهود لأن البلد بلد إسلامي والناس كلهم مسلمون ...)[1] .

بل ما بنى اليهود بيعتهم بل بيعهم في المنطقة إلا بعد ما تحكموا في الأهالي وفي جميع مناحي الحياة فبنوا بيعهم إعلانا للغلبة والظهور وخروجاً عن الأحكام الشرعية وحكم الأمير.

وقد ذهب رحمه الله تعالى إلى طرح المسألة على بساط التشاور والنظر فيها من خلال أقوال الفقهاء المعاصرين .

غيرة المغيلي على الإسلام :

ولا ينس أن المغيلي رحمه الله تعالى عاش في عصر، أبرز سماته التي تميز بها، شيوخ التصوف وأدعياء الولاية وانتشار الشعوذة وتردي الفكر، وانتشرت الطرق والبدع والمنكرات والخرافات، فحاربهم وبين وجه الصواب في كل ذلك وألف كتابين في المسألة.

1 – تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين

2 – فتح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب ..[2]

ومن ثم فإن غيرته على الإسلام والمسلمين لم تختص بتحريض الأهالي على اليهود وكسر بيعتهم ، بل امتدت إلى إصلاح الكل ولعل، خروجه من تلمسان وذهابه إلى الصحراء ما هو إلا جزء من هذه الغيرة الكبيرة والتي نحن اليوم في أمس الحاجة إليها .

فقد وصفه احمد بابا التنبكتي " ... محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني خاتمة المحققين الإمام العلامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم متمكن المحبة في السنة وبغض أعداد الدين ..."[3]

وكما يقول الوزاني بصدق ((فإن اليهود لما طردو من الأندلس ومن سقيلية نزلوا بجهة توات وبنوا كنيسة إعلاناً عن قوتهم التي تملكوها في المنطقة، حيث تفطن المغيلي لهذه الظاهرة السياسية الاقتصادية التي تكون خطراً على المجتمع الإسلامي فتصدى لها بعد استشارة بعض الفقهاء المشهورين في ذلك الزمان في تلمسان وفاس وتونس))[4]

المغيلي يتشاور مع العلماء:

فبعد أن عرض الأمر على قاضي توات الشيخ العصنوني[5] الذي خالف الشيخ المغيلي فيما يرى فراسل علماء تلمسان وفاس وتونس، ومن أبرز من راسلهم وأجابه على المسألة، أبو محمد الرصاع مفتي تونس ، وأبو مهدي الماوسي مفتي فاس ، وأحمد بن زكري مفتي تلمسان والحافظ التنسي المشهور فأجابوا بما يطمئن إليه قلبه

---

[1] ءادم عبد الله الاولوري – الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرن الوسطى في نيجيريا ص 13

[2] احمد بن احمد شرشال - مجلة المرابطون – تصدر في موريطانيا العدد الثالث السنة الثالثة 1416هـ 1995م ص 42

[3] احمد بابا التنبكتي – نيل الابتهاج بتطريز الديباج.كلية الدعوى الإسلامية – طرابلس ص 576

[4] مجمع محاضرات المهرجان الثقافي الثالث للتعريف بتاريخ منطقة توات الدراسات الإسلامية والعربية وأفريقيا – ادرار 11/08/ جمادي الثاني 1408 هـ 27-30 جانفي 1988 ، مقدمة الرد على المغتزلة ، وءادم عبد الله الالورى ص 13 فما بعدها .

[5] الشيخ العصنوني من فقهاء توات كان قاضياً بتمنطيط، عاصر الشيخ المغيلي (القرن الخامس عشر للميلاد)

ولعل أبلغ خطاب يؤيد المغيلي، ويبرز قمية ما رأى وما فعل ما كتبة السنوسي[1] (... بعد السلام عليكم ورحمة وبركاته: فقد بلغنا أيها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغييركم أحداث اليهود- أذلهم الله تعالى وأخمد كفرهم – كنيسة في بلاد المسلمين ، وأنكم حرضتم أهل تمنطيط على هدمها، فتوقفوا من جهة من عارضكم في ذلك من أهل الأهواء، فبعثتم لذلك أسئلة تستنهضون بها من أهل الإيمان في المسألة، ولم يلتفت لأجل قوة إيمانه ونصوع إيقانه إلى ما يشير إليه الوهم الشيطاني من مراهنة بعض من تتقى شوكته ويخشى وقوع ضرر منه سوى الشيخ الإمام الحافظ المحقق أبي عبد الله التنسي جزاه الله خيراً...)[2].

وبهذا يتضح جليا أن الشيخ المغيلي رحمه الله تعالى ، إنما كان ناصحاً مؤيداً للحق مدافعاً عن حقوق المسلمين في دياريهم، إذ قد آووا اليهود وأسكنوهم معهم في قصورهم، ولكنهم سرعان ما انقلبوا عليهم وفعلوا ما قد قرأتم، لان ظنهم أنهم أبناء الله وأحباؤه كما يزعمون وما في الأرض من رزق وخيرات فإنما هي لليهود على وجه الحق وإن كان في ايدي غيرهم فإنما هو مسلوب منهم، وحقهم أن يأخذوه بكل الوسائل ((قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ))[3].

وهكذا أخرج المغيلي اليهود من تمنطيط ليرد النصاب إلى أهله .

تمكن اليهود ومحاربتهم للمغيلي:

ولكن مكر اليهود وخبثهم لم ينته عند هذا الحد، بل ازدادوا حقداً وبغضاً على الشيخ وأتباعه، فتحالفوا مع بعض القبائل مرة أخرى، وعاودوا الكرة، وبداوا في اعتداءاتهم على المسلمين ونهبوا أموالهم عن طريق الفرق العسكرية التي كونوها، وقامت هذه الفرقة بنهب أموال ذرية العالم أبي يحي المنيلوى، وقتلوا العديد من أحفاده سنة 896هـ ، ثم قتلوا ابن الشيخ المغيلي عبد الجبار[4].

فحاربهم الشيخ المغيلي مرة أخرى، ولم يتمكن من غلبتهم نظرا للدعم الذي تلقوه من بعض القبائل، وحيث نشبت حرب بينه وبين قبيلة أولاد علي بن موسى ولم يكن فيها منتصراً وعاد إلى توات بما يسمى اليوم بزاوية الشيخ المغيلي حيث توافاه الله هناك سنة 909هـ 1503م ودفن بها رحمه الله تعالى .

التاريخ يعيد نفسه:

وهكذا يعيد التاريخ نفسه، ولكنا لا نستفيد من التاريخ، ألم يمد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ؟ وعايشهم ولكنهم غدروا به في غزوة الأحزاب وهم يعرفون جيداً أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد استقبلتهم توات في حضنها بعد ما جاءوا فراراً من القهر المسيحي الذي أصابهم في الأندلس، ولكنهم اليهود، تمسكنوا حتى تمكنوا، وعوض أن يردوا الجميل تناسوه وبدأوا يكيدون للأهالي ، ويغشون ويخدعون، حتى في عبادتهم تدخلوا ليفسدوها لهم حسداً من عند

---

[1] الشيخ السنوسي : هو الأمام محمد بن يوسف السنوسي صاحب العقائد الصغرى والكبرى (ق 15 م)

[2] احمدباباالتنبكتي نيل الابتهاج مرجع سابق ص576وءادم عبدالله الا لوري مرجع سابق، ص14.

[3] سورة آل عمران، الآية رقم 75.

[4] –محمد الطيب بن عبد الرحيم – القول البسيط في أخبار تمنطيط –ديوان المطبوعات (1977) ص 28.

أنفسهم، ولما رأى المغيلي ما رآه من مكرهم وخداعهم وتلاعبهم بحياة الناس كان منه ما كان، ولكنهم اليهود، والتاريخ يعيد نفسه، ولكنا لا نستفيد من التاريخ، فعاودوا الكرة بدعم من بعض القبائل ووقع القتال بسببهم ما بين الأهالي فحصل القتل ولم ينتصر إلا اليهود الذين استفادوا من لقاح مكرهم وخداعهم، وغفلة الأهالي وبعدهم عن دينهم، واليوم نعيش الحدث ذاته فجاء اليهود إلى فلسطين وبسطوا نفوذهم، وهاهم اليوم يتحدون كل العالم الإسلامي والعربي، يذبحون ويقتلون ويمكرون ، ولا حياة للعرب في قضيتهم الأولى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)[1] فهل من قارئ للتاريخ ؟ وهل من مستذكر؟ وفلسطين تستغيث . وشعبها المبعد والمهجر يستنصر وما النصر إلا من عند الله. والقدس الشريف ينادي واسلاماه! وقضيته اليوم تنتظر غيره كغيرة صلاح الدين، أو غيرة محمد بن عبد الكريم المغيلي.

الخاتمة :

وفي الختام : رحم الأمة الإسلامية ولود، وسيظل يلد الرجال الذين يقفون لليهود موقف المرشد للحيران، وموقف النافح عنهم بحق الإنسانية، وموقف واضع الحد لهم وردهم إلى الصواب، للتعايش في أمن وسلام وقريباً يرفعون الراية البيضاء لصلاح الدين هذا الزمان.

[1] سورة الذاريات، الآية رقم 55.

المراجع :

01- الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا تأليف ءادم عبد الله الالورى ط (1) 1974.

02- نيل الابتهاج بتطريز الديباج- أحمد بابا التنبكي – كلية الدعوى الإسلامية – طرابلس ليبيا.

03- الحركة الفكرية في عهد السعديين لمحمد حجي – لبنان بيروت دار الغرب ط 1986.

04- محمد بن عبد الكريم المغيلي – رائد الحركة الفكرية بتوات رسالة ماجستير جامعة السانية وهران محمدحمدي.

05- مجمع محاضرات المهرجان الثقافي الثالث –أدرار-8-11 جمادي الثانية 1408 هـ -27-30- جانفي 1988 م.

06- أعلام الفكر والثقافة في الجزائر – يحي بوعزيز –دار الغرب بيروت .

07- ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، وما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار .

الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي – مخطوط بالخزانة البكرية بتمنطيط الجزائر.

08- رسالة إلى كل مسلم ومسلمة – الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ، مخطوط بالخزانة البكرية بتمنطيط الجزائر .

09- مقال : دعوة الشيخ المغيلي في غرب إفريقيا – د احمد بن احمد شرسال – مجلة المرابطون – تصدر عن معهد العلوم الإسلامية والعربية بموريتانيا العدد3 -1995 .